مندوب الدم

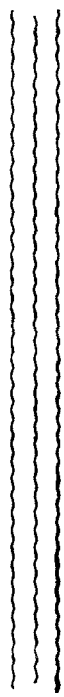

مصطفى خضر

ما الذي كان يخفق في قمر الأمس،
عصفورة أم رغيفٌ،
ومن كان يضحك في السرّ من حبة القمحِ؛
هل قطرة الحب تسقط في القلبِ،
أم طلقةٌ من رصاص ستمنح أسماءها
لنشيد من المعدنِ،
اللغة الآن تطلق أحزانها،
أم جنود من الدم تسكن بين المقاطعِ؛
تختلج الكلمات، وتصعد ليل الجذورِ
وتصغر شمس معلقة في الهواء
وينتصب الحجر الآدميْ!
كان فصلاً من القمر الدمويْ
تعبئه في الزجاجات أيد من القرمزِ،
احتفلت بالزفاف المقنّعِ،
تخلط بين دم وحليبِ
تزف السنابل في بركٍ من جحيم المبيضاتِ...
ترضع أم وليداً جديداً
وتخطو الرصاصات خطواً وئيدا
تبايع أقبية سوف نُدعى إليها
فأية أقنعةٍ سوف نلبسُ،
أي صراطٍ سنعبر بعد صراط الدماءْ!
نحن المقتولين هنا سلفاً
ماذا نفعل في القبر
أي مراسم تأخذ منا الحبَّ
ومندوب الفقر هنا،
مندوب الموت هناك،
يتنفس في بنك الملكوتِ
يعدّ استثمارات أخرى
لحسابِ جارٍ آخرْ
يفتتح الحشرجة الدمويه،

لا تنفع ذكرى!
كان فصلاً من الثمر الدمويْ
يدخل الفوهة القمريه
كان يهبط في حمأة الوحشةِ،
احترقت في جناح التناسل أوراقهُ،
نفخت في الفضاءِ،
وهي تصنع تمثالها من هواء!
كان فصلاً من الحجر الدمويْ
وكنت هنا أتساءلُ:
هل كان في شارعٍ غامضٍ يتلقّى التحية،
أم كان ينتظر البحر أن يتقدَّم صوبه،
وهو ينوء بشعرٍ بسيط خفيْ!
أتساءل: هل هذه الحجرات ستهدر ألوانه القزحيهْ
أتساءل: كيف سيأتي إلينا.
أو سنأتي إليها
ما الذي كان يخفق في حبّة القمحِ،
من كان يأكل في طبق الحبِّ،
يغفو على الأرض مستسلماً وهو يبكي عليها
ما الذي كان يركض في الدمِ،
أقصوصة النارِ، أم وردةٌ في الضمائرِ،
أم نار صحرائنا اشتعلت في الدروب الخفيةْ!

★ ★ ★

هل رأيتَ الدمَ؟
احترقتْ ضفّة الماء فيهِ،
طيورٌ من الخضرة الذهبية تسعى إليهِ،
بقايا رمادٍ من الأولينَ
ترفرف تحت غيوم من التبنِ،
والثمر المرّ يشرب حمّى الوجوه الغريبةِ،
يغتسل الحلم في بركات الوجوه المعطّرةِ،
العدسات القريبة تحجب ظل النهارِ،
وتطلقُ صرختها نصفُ دائرةٍ من دخان المدينةِ،
تجتمع المدن الرخويّة في وفد معصمها الكاذبِ،
القبل المستكينة يخرج منها شواء الدم الآدميْ!
- انتظر ساعةً
سأحدّثُ عن لهب يتصاعدُ،
عن ليل آلهة من نحاسٍ،
وعن سرب أضرحةٍ يتباعدُ،
سوف أحدّث عن قبّة من رصاصٍ تفوحُ،
أحدّث عن ظلِّ مقبرة يتطاولُ،
سوف أحدّث عن مدن تتمدّدُ،
عن وطنٍ يتبددُ...
ثم انتظر ساعةً
سأحدّث عن نبأ ومزادٍ،
وعن جثة وعبادٍ
وصوم معادٍ...
وانتظر ساعةً
سوف أخرجُ من جثّة الشعرِ
خلف فساد العصافيرِ،
تخرجُ من لغة الرأس مذبحةٌ،
يتدلى لسانٌ، من الصحف السودِ،
والأفق يقطع أسلاكه،
المدن الرخويّة تحمل جثتنا البلديةَ
أيّ التواريخ تحملها كرةٌ، من هواءٍ
وأين نُوارى هنا وهناك!
هذه الشجرات وتلك البحيراتُ،
هذي النساء الطريات ودعت اليومَ:
صبحاً جميلاً، مساء جليلا...
والسماءُ التي اقتربت من عيونك تطفىء جمرتها،
وتبايع نسلاً من الخشبِ،
ابتردت، وتوارتْ قليلاً قليلاً...
وتوارتْ وراء الدخان:
شعوبٌ
بأحزابها وقراها
وتوارتْ بأنسابها وتواريخها الملكيهْ
وتوزعتُ ضائعاً في ثراها
وتباعدت غارقاً في دمائي
بين ليل الكوى وليل السماءِ
مدية خلف مدية تتوالى
في مصابيح إخوتي الفقراء
أتكلم باسمي وحدي!
- من يتاجرُ في دمنا؟
- انتظر ساعة!
- هل رأيت دماً غير هذا الدم امتدَّ في الأرضِ!
أين الدم الملكيُّ،
وأين دم الحكمة الذهبيهْ!
هل ترى غير هذا الدم الآن يجري؟
سأحدّث عن زبرٍ وطوائف،
أتحدث عن صحفٍ وأظافرَ،
عن قبةٍ ومنابرَ،
عن لغة عربيه....
آه! لا تنتظرْ، واعبر الآنَ شعباً من الفقرِ، موتاً وحيداً...
فإلى الشرقِ والغرب مقبرةٌ تتباعدُ،

في جهة العصر مقبرةٌ،
والطيور التي ٱبتعدتْ في المغيبِ
تودّع جثة عصرٍ من الصيفِ، جثة فصل من النومِ،
والورق الآدميُّ يدورُ،
تقلّبه قبضةٌ من طحالبَ...
فانتظرْ ساعةً كي ترى أي مقبرة في الجهاتْ!
أتكلم باسمي وحدي
تختلط الظلمة بالنورْ
أرأيت اليتم العاديَّ وغير العاديْ
أرأيت اليتم اليوميْ
أتكلم باسمي وحدي
أطلب فتح ملفّات الحزن العلنيِّ
وأوراق الحزن السريْ
أطلبُ فتح ملفات المقتولينَ
أطلبُ فتح أضابير الرسميين

وغير الرسميينْ
أطلبُ فتح صنابير الصلح العربيْ
تختلط الظلمة بالنور
أخرجُ من جلدي
هذا الشعب المكسورْ
يدخل في الليل الشعبيْ!

تلك دوريةٌ في الشوارع تبحث عن ظلِّ عصفورةٍ
والملاعبُ تبحث عن كرةٍ، أم بقايا قماط الطفولةِ،
أم ثدي أمٍ يجفُّ الحليب به،

أم خلايا من العسل الوطنيّ!
تلك نشرة أسعارنا في الظهيره
تتحوّلُ أغنيةً في المزادْ
والمسدس يطلق قبلته المستديرهْ
يثقب الوطن الدائريْ،
ويهبُّ وراء الدخان الجرادْ!
تلك قارورةٌ من رمادٍ
توزع عطراً وزهراً/وطيور السوادْ
تتصايح ملء الجهات الجديده...
تلك مقبرةٌ أم قصيدهْ!
في الجهات الجديدة كانت بقايا عظامٍ
وجوهٌ مُهشّمةٌ، وحناجرٌ مخنوقةٌ بالترابِ
تحيط بها صفرةٌ وسوادٌ

في الجهات خرائب مبتلةٌ بالسحابْ
وأمعاءُ طفلٍ وأقمطةٌ وكتابٌ،
وصمتٌ تحيط به الفوّهاتْ
في الجهات الجديدة ماذا سأكتشفُ؟

ٱنتظر الآنْ!
أتكلم باسمي وحدي
أخرجُ من جلدي
أخرجُ من وطني
أتلمّسُ أعضائي
أتلمّسُ جمجمة الإنسانْ
تتدحرج في الليل النائي
هل ذاك البشري العابرُ

يقتلني
أم ذلك وهو يشدُّ يدي
في الجهات الجديدة ماذا سأكتشفُ

ٱنتظر الساعة الحجرية: يتصل الموت بالعالم الحجريْ،
ويتصل الصمت بالكلماتْ!
وانتظر ساعة: أتدفّقُ مثل التلاميذِ،
ثم أزيلُ دمي من طريقي، أزيلُ رمادي
أزيلُ دمَ القبّةِ، الأثريهْ!

أي شيءٍ سينجبهُ ذلك الدمُ؟
كيف يشّع ويملأ ليل الحضوراتِ،
يدلي هنا بشهادته، ثم يسعى،

ويعبرُ بين العبادِ
هل أتكلم باسمه؟
باسم الشجر المهجورِ، وليل الطورِ،
وطور الفقراء
هل أتكلم باسم الأمعاءِ وباسم الأشياءِ
هل أتكلم باسم الطوفانِ وباسم الصحراءِ
أتكلم باسمي وحدي
أيها الوطن العلنيْ!
أيتها الأمة العلنيه!
هوذا حلّ مندوبُك الدمويْ!

٢٣ حزيران ١٩٨٠

حمص